

الفتح الإسلامي للمغرب

تقديم:

نسجل منذ البداية أن مصادر الفتح لا تختلف في مميزاتنا عن باقي مصادر المرحلة الأولى للوجود الإسلامي في المنطقة من ناحية الندرة والقلة وتأخر الظهور وغلبة الطابع الملحني والاختلافات الكثيرة لحد التناقض، وهذا ما يجعله غامضا إلى حد ما. وما يمكن استنتاجه مما تتوفر عليه من معطيات هو أن فتح المغرب طال جدا (تلمي قرن تقريبا) عكس فتوح البلدان الأخرى التي تمت في وقت قصير (مصر ثلاث سنوات- إيران أربع سنوات- الأندلس ثلاث سنوات) وبعد معركة أو معركتين حاسمتين. فما هي مراحل الفتح؟ وما هي عوامل تعثره؟ وما هي إنجازاته؟

1- مراحل الفتح الإسلامي للمغرب

1-2- الغارات الاستكشافية

اعتبر المسلمون ولفترة طويلة شمال إفريقيا ثغرا وبلد حرب يوجهون إليه حملات خاطفة ومتقطعة تكفي بالتجوال وجمع الغنائم ثم الانسحاب إلى مصر. وقد بدأت بعد فتح مصر وخاصة الإسكندرية سنة 21هـ/642م. وأهم الغارات:

*فتح برقة وطرابلس 22-23هـ/643-644م:

قادها عمرو بن العاص والي مصر وحصل على جزية 13 ألف دينار (يقدم فيها أبناء البلد من قبيلة لواتة)، ووجه سرايا جنوبا وغربا نحو الفزان وجبل نفوسة. ثم انسحب بأمر من عمر بن الخطاب الخليفة.

*حملة عبد الله بن أبي سرح على إفريقية عام 27هـ/647م

قاد حملة من عشرين ألف رجل وواجه إمبراطور إفريقية المستقل جرجير في سبيطة قرب القيروان الحالية فقتله. وتجول بالغارات في سهول إفريقية ثم عقد صلحا مع الروم للانسحاب مقابل أتاوة ضخمة (300 قنطار من الذهب أو 2.5 مليون دينار) بعد سنة وشهرين من الغزو. فعمله لم يكن "إلا غارة طويلة كثيرة الأحداث وافرة الغنيمة" (مؤنس، فتح، ص.106).

*حملة عقبة بن نافع عام 41هـ/662م

توجهت من برقة نحو واحات غدامس وفزان وزويلة.

*حملة معاوية بن حديج 45هـ/664م

شارك فيها عشرة آلاف مقاتل وتجولت في سهل تونس ووصلت سوسة وجولوا وبنزرت وجربة، وحصلت غنائم كبيرة (نصيب الفارس في جولاء 200 دينار). وبعد ما يقرب السنتين ترك البلاد وعاد إلى مصر.

الحملة الأولى استطلاعية لا تهدف إلى الاستقرار

بل التعرف على المنطقة وإضعاف الروم والغنمة.

1-2- الفتح المنظم

بدأت هذه المرحلة عندما فكر المسلمون في الاستقرار في المنطقة واتخاذ مقرات دائمة وثابتة، لقد صار المشروع إدخالها في أرض الإسلام.

*حملتا عقبة بن نافع الفهري الأولى والثانية (50هـ/670م و 62-63هـ/681-682م)

سنجمع بين الحملتين بالرغم من الفارق الزمني بينهما لغاية بيداغوجية ومنهجية محضة.

توجهت الحملة الأولى إلى شرق إفريقية كما فعل من سبقوه حيث جدد عملهم، لكنه عبر بوضوح عن رغبته في الاستقرار بالبلاد والاحتفاظ بالمكتسبات، فبنى مدينة القيروان كأول مدينة إسلامية بإفريقية، وقد غير بهذا التصرف مجرى الفتح. ووجه غارات واسعة في كل الاتجاهات خاصة الجنوب. وهو في غمرة نشاطه ونشوته بالنصر استدعاه رئيسه والي مصر مسلمة بن مخلد وعزله سنة 55هـ/675م.

انتظر عقبة سبع سنوات قبل أن يعود إلى إفريقية بتكليف من يزيد بن معاوية بحماس أكبر وتحد أقوى ورغبة في توسع أكبر، فنظم حملته الثانية التي قادته إلى المغرب الأقصى عبر المغرب الأوسط (باغاية- الزاب- شلف- تاهرت- طنجة- السوس) فتجول في مناطق المغرب ووصل السوس الأقصى والمحيط الأطلسي. وعند عودته منتشيا ومعتقدا أنه قد ضم المغرب تمرد عليه كسيلة بن لمزم في تهودة ببلاد الزاب وقتله سنة 63هـ. وبذلك ينجح في توصيل خبر الإسلام إلى أقصى مناطق الشمال الإفريقي، لكن المنطقة استقلت بعد موته تحت سلطة كسيلة الذي احتفظ بالإسلام وهذا تطور مهم بالمقارنة مع المرات السابقة التي يتم فيها التراجع عنه.



فترة أبي المهاجر دينار 55-62هـ/675-682م

تولى إفريقية بين عهدي عقبة، وأرسل غارات في كل الاتجاهات انطلاقاً من القيروان، لكن أهم ما قام به هو التوسع نحو المغرب الأوسط بمركزه تلمسان حيث كسب ود وحلف كسيلة الأوربي زعيم التحالف الزناتي بقيادة أوربة والذي أسلم وصار صديقاً له وانتقل للإقامة معه في القيروان. وبهذا الفتح زاد خطوة أخرى بالإسلام نحو الغرب.

حملة زهير بن قيس البلوي 69هـ/689م

كانت غايته الأولى الانتقام لمقتل عقبة فنجح في قتل كسيلة واستعاد القيروان، ثم انسحب نحو المشرق وقتل في اشتباك مع الروم في برقة. فعادت أرض المغرب للاستقلال من جديد تحت زعامة الكاهنة داهيا.

حملة حسان بن النعمان 76هـ/695-696م

اختلف المؤرخون حول تاريخ وصوله بين 73 و76هـ، لكن أحداث الدولة الإسلامية تجعل التاريخ الثاني أكثر ترجيحاً. وتوجه اهتمام حسان نحو القضاء على عناصر المقاومة من الروم والبربر وفك تحالفها وبناء علاقة المسلمين بالبربر على أساس من التحالف والولاء. فبدأ بفتح قرطاج ووزع الغارات في كل الاتجاهات، وواجه الكاهنة في الأوراس فهزمته وطاردته حتى شرق طرابلس واستقلت بإفريقية. وبعد انتظار حوالي ثلاث سنوات (78-81هـ) عاد بقوة أكبر وخطه أمتن فدخل قرطاج وهدمها ثم اصطدم بالكاهنة وقتلها وضم جزءاً من رجالها حلفاء. ثم بنى مدينة تونس على الساحل المتوسطي قرب قرطاج عام 84هـ. ومرة أخرى لم يترك للتمتع بنصره إذ عزله والي مصر عبد العزيز بن مروان.

حملة موسى بن نصير 85-86هـ/705-706م

جاء لينهي عمل سابقه فقام بحملة واسعة في كل الشمال الإفريقي خاصة المغربيين الأوسط والأقصى، وقضى على كل جيوب المقاومة، وأرسل الغارات نحو صقيلية وسردينيا

والواحات الصحراوية والأندلس. وبذلك أتم فتح المنطقة وضمها إلى دولة الإسلام لتصير ولاية أموية.

صار المغرب ولاية إسلامية أموية يحكمها وال في القيروان أو الفسطاط في مصر، لكن ذلك تطلب وقتا وجهدا كبيرا. فلماذا هذا الطول؟

3- أسباب عشر الفتح

تفصل الحملة التي قادها عمرو بن العاص عن حملة بن نصير أربع وستون سنة شهدت معارك كثيرة وقتل فيها قادة كثر وحدثت حركة مد وجزر في امتداد الإسلام في المغرب، وهذا أمر لم تألفه الفتوحات الإسلامية إلا في الهند. فما هو السر في ذلك؟

يمكن التمييز داخل أسبابه بين الخارجي المشرقي المرتبط بالفاتحين والداخلي المغربي المتصل بأوضاع البلاد المفتوحة.

3-1- عوامل مشرقية

*عدم رغبة الخلافة في المجازفة

حذر سجل في العراق والشام من قبل، فالخلفاء لا يريدون المجازفة والدخول في حروب لم يستعدوا لها أو التوغل في مناطق بعيدة أو تفصلهم بحار عن عاصمة الخلافة. وقد احتفظ المؤرخون بقولة ينسبونها للخليفة عمر بن الخطاب وجهها لعمرو بن العاص لما استأذنه في فتح إفريقية جاء فيها "إنها ليست إفريقية، ولكنها المفرقة غادرة مغدور بها لا يغزوها أحد ما بقيت". وسواء أكانت القولة صحيحة أم غير صحيحة فهي تعكس التردد الذي طبع اتخاذ قرار فتح المغرب. ونفس التردد سيسجل عند عثمان لما طلب منه ابن أبي سرح إذن غزوها حيث أمره بعدم التغيرير بالمسلمين وسيقال هذا عن الوليد وموسى بن نصير بشأن فتح الأندلس.

*بعد مصدر القرار:

كانت عاصمة الخلافة في المدينة والكوفة ودمشق وعاصمة الولاية في الفسطاط في مصر، وهذه مناطق بعيدة عن مسرح العمليات مما يتطلب وقتا طويلا لنقل الأخبار وإيصال الدعم بوسائل العصر مما كان يفوت الفرص على المقاتلين. ولنا في مثال حسان بن النعمان خير مثال إذ انتظر ثلاث سنوات ليحدد الحرب مع الكاهنة حتى إن مركزا حضاريا قام في مكان معسكره عرف بآبار النعمان.

*مشاكل الخلافة والولاة

فترة مليئة بالأزمات السياسية والعسكرية في عاصمة الخلافة والأقاليم، ومنها: الأزمة الكبرى ومقتل عثمان- صراع علي ومعاوية- خلافة يزيد بن معاوية- قتل الحسين- ثورة ابن الزبير، وصراع العصبية وممثليها من الولاة وخضوع الإدارة لنزوات الأشخاص (مسلمة وعقبة- عبد العزيز وحسان- موسى والوليد). وكل هذا عطل الفتوح أو أخرها.

*ضعف خبرة القواد وجشعهم

يلاحظ خاصة في المرحلة الأولى كثرة التفكير في الغنائم والأتاوات مما جعل الفاتحين يظهرون في أعين البربر كباحثين عن المال فقط مثلهم مثل المحتلين السابقين. كما كان بعضهم يجهل أو يتغافل عن أصول التعامل مع الزعماء المحليين (ارحموا عزيز قوم ذل)، وتحفظ المصادر بمعاملة قاسية لعقبة النقي مع زعماء محليين (ودان=جدع الأنف/ جرمة= مشي طويل لبيدين/ آخر= قطع أصبع/ كسيلة =ذبح تيس بيده)، وميز ناحية البربر لذلك فشلت الجهود الأولى لضم المنطقة ولما فطن الزعماء العرب لذلك بداية بأبي المهاجر ومرورا بحسان بن النعمان وموسى بن نصير وغيروا معاملتهم نجحوا في كسب البربر وفتح المغرب.

3-2- عوامل مغربية

*الوضع الجغرافي للمغرب

المغرب بعيد عن عاصمة الخلافة وحتى الفسطاط في مصر، والمغرب متقطع التضاريس وصعب المواصلات، ومناخ المغرب قاس في الشتاء بالنسبة للقاتحين من سكان الصحراء. وهذا يؤثر كثيرا على نشاط الفاتحين.

*الوضع السياسي

كان المغرب في هذا الوقت منطقة تجاذب بين بيزنطة والمسلمين لذلك كان البربر يجدون دائما دعما من الروم يميل الكفة لصالحهم، كما أن الروم لم يتوقفوا عن الهجوم على المنطقة وقتل بعض القادة (زهير البلوي). وساهم انقسام المغرب بين عدة قبائل في جعل المقاومة متعددة وشرسة، فكلما هزمت مجموعة حلت أخرى محلها مستغلة التضاريس الوعرة ومعرفتها بالبلاد وكذلك سهولة تنقلها بفضل نمط عيشها القائم على الترحال.

*رغبة البربر في الاحتفاظ باستقلالهم

هذا أمر جرب مع الغزاة السابقين ونجح نسبيا في بقاء القسط الأكبر من البلاد خارج سيطرتهم، لذلك جرب البربر هذا النهج مع المسلمين وحاولوا أن يبعدهم بوسائل متنوعة (حرق المراعي- أتوات- قتال).

انتهى الفتح بعد جهد وصارت البلاد أرضا أموية، فهل صارت إسلامية مسلمة؟

3- الإسلام والتعريب في المغرب بعد الفتح

كتب حسين مؤنس فقال: "إن المغرب القديم اختفى بأديانه ومذاهبه المختلفة وحضاراته الواهنة، وحل محله المغرب الإسلامي، أمة واحدة ذات دين واحد ولغة واحدة وحضارة واحدة وواجهة واحدة." (فتح المغرب، ص.299).

فهل فعلا أسلم الناس وانتشر الإسلام كما يفهم من هذا الكلام؟

نبدأ بالبحث عن الوسائل التي يملكها المسلمون لنشر الإسلام:

- فرض النطق بالشهادتين على كل من غلبوه أو خضع لهم مما يجعل منه مسلما بالاسم.

- تبليغ بعض التعاليم لبعض الزعماء بالخصوص.

- تعليم الناس بالمشاهدة.

- بناء بعض المساجد(القيروان- تونس- شاكرا- إيجلي- نفيس- مساجد أخرى)

- استقرار بعض التابعين في مدن لتعليم الناس تعاليم الإسلام.

- ترك موسى سبعة عشر رجلا لتعليم المصامدة القرآن وتعاليم الإسلام (ابن عذاري ج42/1).

فهل تكفي هذه الأشياء لنشر الإسلام على نطاق واسع كما تؤكد القولة السابقة؟

يبدو أن كلام مؤنس يدخل في نطاق الحماس والكلام المبسط الذي لا يستند إلى واقع الأشياء والمصادر.

- إن الأفكار الدينية من أكثر الأفكار رسوخا وثباتا ومقاومة، لذلك يتطلب تغييرها وقتا طويلا وجهدا أكثر مما توفر للفاتحين.

- إن المصادر تتحدث عن أحداث لاحقة وتذكر نشر الإسلام في أوساط البربر (إدريس1

و2- المرابطون- الموحدون..)

- يرد في المصادر حديث عن عبادات وثنية في المنطقة خلال القرن 5هـ/11م (عبادة الخروف).

- إن التعليم بالمشاهدة مس فقط فئة قليلة من الزعماء أو الجنود أو الساكنة التي تقع على ممرات المواصلات، أما المناطق الداخلية فربما لم تسمع حتى بمرور الفاتحين.

- مرت حركة الفتوح فقط في الطرق الرئيسية والمدن أما المناطق الداخلية والبوادي فقد ظلت بعيدة عنها وعن تأثيرها.

- الأغلبية إن لم يكن كل السكان تجهل العربية والفاثون يجهلون الأمازيغية، فكيف سيتم التواصل بشكل واسع مع السكان؟

يبدو من خلال هذه الأمور أن انتشار الإسلام ما زال في بدايته وكل ما يجب الأخذ به هو أن المغرب صار من الناحية السياسية مسلما وأن الباب صار مفتوحا لانتشار الإسلام لكن ذلك سيتطلب قرونا وجهودا كثيرة.

ونفس الشيء ينطبق على العربية إن لم يكن أكثر، فحضورها سيقصر على الحواضر وفي أوساط الموالي ومن يحتك بالعرب مباشرة أما الأغلبية الساحقة فستجهلها وستبقى بعيدة عنها.

خاتمة

طالت حركة الفتح أكثر من اللازم لأسباب ذاتية وموضوعية، ونجحت في الأخير في إدخال المغرب في حظيرة الإسلام لتفسح المجال لنشاط الدعاة من كل المذاهب وخاصة المعارضة ليقوموا بعملهم في الأسلمة والتعبئة السياسية.

%